العزلة في رأس الجبل

٥ — حلة ما انقطع

الحرية

قال الناسك : تركنا الحديث عند ذلك البستيل . تلك البستيل لا تنطلق الحرية بل تنطلق الفوضى . لا أظنك تجهل ماذا عتب ذلك البستيل منذ قرن ونصف . ولعلك تقصد بذلك البستيل ذلك السودية .

قلت : طبعاً . هذا ما أعنيه . أوليس إذا زالت السودية تنطلق الحرية من عقالها ؟

قال : — لا يمكن اطلاق الحرية من عقالها ، وترك الحبل لها على الغارب . لا بد من قيود للحرية بحسب ما يقتضيه النظام المدني . ولجلاء ذلك أروي لك حكاية زنجي من أزنوج العراة الذين ليس على عوراتهم الا مئزر آدم . استخدم هذا الزنجي بعض المرسلين الانكليز في إحدى المستعمرات القصية في مجاهل افريقيا . تأنس لهم ولصق بهم واجتهدوا أن يهذبوه لما توسموا فيه من الفطنة والذكاء بالنسبة الى قومه . فعلموه بعض التعليم المستطاع وألبسوه وأعاشوه معهم عيشة راضية . ثم أخذه أحدهم معه الى انكلترا في عطلة سنوية . وهناك ألبسه الثوب الذي نلبسه . وكان يأكل لدى المائدة ومن الصحفة وبالشوكة والملعقة الخ . ولكنه ما لبث أن تضجر وتشكى من الغربة وأصر على العودة الى ذويه . فأعاده الى بلده الشخص الذي اصطحبه . وما أن صار بين قومه حتى عاد الى عريه وحياته القديمة . فسأله المرسلون : لماذا فعلت هكذا ؟ أما كان أفضل أن تبقى في ثوبك وفي أدبك وتمدنك الذي اكتسبته ؟ فقال : ان المدنية أتعبته جداً . الطوق حول رقبته كاد يخنقه والبنطلون والصدرة كادا يطبقان ظهره على بطنه . والشوكة والملعقة نكدا عيشه . فهو في عريه وفي همجيته سعيد . المدنية قيد لحياته ، والهمجية حرية مطلقة له في معيشته . فهو حر الآن أن يأكل ويشرب وينام ويطوف ويحب وينصب ويشتغل كما يشاء . هكذا قارن الزنجي همجيته بمدنية الغرب . هذه قيد وتلك حرية .

هذا اختبار محسوس للحرية . كلما خطت المدنية خطوة الى الأمام وبعدت عن الهمجية ، ضاقت دائرة الحرية . وقد تبلغ المدنية الى حد أن الفرد يصبح كالجندي الذي تحت السلاح

لا حرية له، بل يجب أن يتصرف بمقتضى النظام الواسع المعقد. فاذا شئنا أن نملك البسيل فليس لكي نطلق الحرية، بل لكي نقضي على عبودية الجمهور للفرد. وإنما لا نقضي على عبودية الفرد لنظام الجمهور.

قلت: أشكر لك يا سيدي هذا التحليل والتمييز بين الحرية المطلقة المؤدية الى الفوضى، والحرية المحدودة التي يمكن أن يكون الفرد فيها خاضعاً لنظام الجمهور، وكذلك بين العبودية التي يخضع فيها الجمهور للفرد، وعبودية الفرد للجمهور. ولكن أليس شعور الفرد بالعبوديتين واحداً؟ عبودية والسلام.

فضحك وقال: أظنك لا تطيق أن تدفع جزية للفرد لكي يتمتع ويسطر وأنت تشقى. ولكن لسرُّ بأن تدفع ضريبة لحكومة تعرف انها ستنفق هذه الضريبة لمنفعتك.

قلت: ولكني لا أطيق أن تفرض عليَّ عبادة الله مثلاً سواء أكانت فرض فرد أو فرض حكومة جمهور. ولا أطيق أن يكون الزواج بقيود شديدة سواء كان القيد فرداً أو جماعة.

قال: اني معك في هذين المثلين. وانما يجب أن تلاحظ جيداً. ان نظام الحكم الشعبي أو الجمهوري لا يكون بناءً على رغبة فرد كالحكم الفردي، بل بناءً على رغبة سواد الشعب. فاذا كان الشعب يحكم نفسه بنفسه، لا يستبد سلطانه بحرية الفرد فيما يخصه نفسه فقط ولا شأن لغيره به. ففي الحكم الديموقراطي الذي بسطناه آنفاً ترتفع يد السلطة عن حرية الفرد في عبادته وعقيدته وحبه وحياته المنزلية الخ.

قلت: أما مسألة الحب هذه فموضوع جدير بالبحث المستفيض. الى أي حد يجب أن يكون الزواج مقيداً.

قال: لا ينبغي أن يكون للزواج قيد غير الحب، والحب وحده. وإلاَّ كان القلب مظلوماً في نظام المدنية الديموقراطية الراقية.

حرية الحب

قلت: ألا يخشى من فوضى الزواج اذا كان الحب فقط شرطاً له.

قال: نطرق هذا الموضوع بحكاية فكاهية طريفة. هل تذكر ان الريح كانت شديدة منذ يومين؟

— نعم. كانت كعاصفة في الساحل.

قال: وهنا كانت في أشد عصفها لأن مزرعتي مرتفعة ومعرَّضة كثيراً للريح. صممت في

أثناء ثورة الريح خوار أحد الثيران . فذهبت الى الحظيرة لأرى ما الخبر . فإذا الثور الأشهب يناطح الريح، حتى كاد يقتلع الوتد فقلت : ماذا بك يا أشهب .

قال : أريد حريتي لكي أقذف هذه الريح وأعلمها النطاح .

ففككت رسنه عن قرنيه وقلت : ناطح ما شئت .

وشرع يعدو في رحبة الدار . وإذا بالريح تقول له — ويحك ياغبي . ما زلت أسيراً في مزرعتك ، فكيف تظن أنك حرٌّ الآن ؟ ما أنت مناطحاً إلاَّ أخمص قدميَّ ، لا تستطيع أن تصدني عن كرمتك وبستانك وزرعك . فإذا ازددت هياجاً ضدي كسحتُ أشجارك وزروعك . النطاح لا يجديك شيئاً ما دمت أسيراً . ولو كنت حرًّا لما باليت بهبوبي. أنظر الى الطير فانها جزلةٌ بعاصفتي . لان عاصفتي تحملها وتندفع بها الى مسافات أقصى من مسافات طيرانها . فهي حرَّة تندفع حيث تشاء راكبة على منكبي .

فقال الأشهب : حقًّا ان الطير في نعيم ولا تقوى عليها الريح، بل هي تتطيها سعيدة . فالله كيف حصلت الطير على حريتها يا ريح

فقالت الريح : حصلت الطير عليها بمثل ما حصل الانسان على حريته .

— بماذا ،

— بقوة الحب .

— الحب ؟ ما الحب ؟

— أترى ياغبي أن أسرك حرمك معنى الحب ؟ ألا تفهم ما هو الحب ؟

— ما هو ؟

— هو قاعدة الزواج

— ولكني لست محروماً نعمة الزواج .

— ولكن زواجك بلا حب إنما هو خضوع لأمر الغريزة فقط . ولا حرية لك فيه . وأما الحب فهو النعمة التي لم تتمتع بها . ولو حصلت على هذه النعمة لكنت كالانسان ولا سلطة له عليك . بالحب تعرف الخير والشر . وتعرف الحرية وتنعم بالرزق بأقل عناء . إنك بجهلك الحب تضطر ان تعول الانسان قبل ان تعول نفسك . الحب مصدر السعادة . فأنت بلا حب بلا سعادة ....

— ها . ها . ها . قفي يا ريح ها . فهمت ان الحب كل شيء فعلميني كيف أحب .

— تحب البقرة بلقاء وتداعبها وتداعبك وتلاعبها وتلاعبك ولا تداعب غيرها، وهي لا تداعب غيرك ، فتكونان زوجين متحابين، لا شريك لكما في الدعابة واللعب .

— ولكني أفعل هكذا أحياناً .

— لا تفعله عن حب روحاني، بل عن شهوة جسدانية .

— ما هو دليل الحب الروحاني .

— الغيرة . الغيرة دليل الحب الروحاني .

— ما هي الغيرة .

— هي أن تغتاظ اذا كان الثور الأبلق يداعب زوجتك البقرة بلقاء . وتناطحه وتردّه عنها . وهي أيضاً تغتاظ اذا كانت البقرة عجلاء تداعبك فتناطحها وتردها عنك . هذه هي الغيرة ، وهي دليل الحب الروحاني الحقيقي .

فقال الأشهب : وهل عند الطيور حبٌّ كهذا .

— نعم زوجا الحمام يتعاشقان ويتساكنان سعيدين كل العمر، ويبتهجان معاً بفراخهما ويستلذان التعاون في بناء عشهما وتربية فراخهما .

— وهل الانسان يحب هكذا أيضاً ؟

— الانسان ؟ آه من الانسان . ما تسلط الانسان على جميع الحيوانات إلاّ بقوة الحب . بل تسلط على كل شيء في الطبيعة بقوة الحب . وبقوة الحب استطاع أن يبني بيتاً ليرد عواصف عنه ، بل استطاع أن يغتطي بقوة الحب استطاع ان يمتقل كل قوة في الطبيعة، فسخّر الرياح والبحار والأنهار والهواء والنور لخدمته . بقوة الحب ملك الطبيعة كلها . وكل ما يفعله الانسان من عظائم الأمور إنما يفعلهُ لأجل الحب وبقوة الحب . فإذا كنت يا أشهب تحب تصير حرًّا وعلى تعادي الزمان تصير قادراً كالانسان

والتفت الأشهب فرأى الثور الأبلق يلحس البقرة بلقاء وهي تلحسه . فهاج الأشهب غضباً وهجم على الأبلق ونطحه فطفقا يتناطحان تناطحاً شرساً حتى كاد الواحد يبقر بطن الآخر أو يكسر قرنيه، الى أن وقعا على جدول الماء الجاري أمام باب الحظيرة . فصاح الجدول بهما : تبًّا لكما . أما وسعتكما الأرض على رحبها حتى دستما عليَّ وكدرتما صفائي ؟ ما بالكما تتناطحان ؟

فقال الأشهب . ان الأبلق هذا يعتدي على زوجتي بلقاء . فسأبقر بطنه ، وأعطه كيف تكون الغيرة .

فقال الجدول : وي وي وي . لله منكَ غبيًّا . ولم يبقَ في الوجود غير البقرة بلقاء حتى تتنازعانها ، اذا داعب الأبلق بلقاء داعب أنت عجلاء ، واذا لاعب هذه ، فلاعب أنت تلك .

— ولكن بلقاء زوجتي خاصة بي وأغار عليها .

— إنك أحمق ، أليس أفضل أن تكون زوجاً لكل بقرة ، وكل بقرة زوجة لك ولغيرك ؟ من عداك بهذا الحق ؟ الانسان ؟ الانسان الذي يحب ويتألم ويغار ثم تدفعه الغيرة وحب الاثرة الى القتال والتفاني . إني أحذرك من شر الاثرة فانها توردك مورد التهلكة . حاذر منها

— ولكن الحب . آه الحب قوة عظمى أيها الجدول يتسلط بها المحب على الكون

— ويلك ! الحب ؟ الحب الانساني ؟ ما هو حب ، بل هو اغراق في الشهوة . إنك أغنى من الانسان بالحب الذي وهبتك الطبيعة . تحب اليوم بلقاء . وغداً تحب بجلاء . وبعد غد تحب شهباء . فأنت في بحر من الحب . فلماذا تحبس نفسك في بركة منه .

— ولكن قيل لي ان الحب شيء روحاني يختلف عن حبنا الحيواني . وهو لا يكون الا باختصاص كل من الحبيبين نفسه بالآخر .

— لقد خدعك من لقنك هذا الدرس . إن الحب شيء غريزي قضت به الطبيعة ؛ الحب الذي يدعيه الانسان ويزعم انه روحاني انما هو حب مصطنع مزيف متجاوز حدود الطبيعة . فاذا شئت أن تقاوم سنة الطبيعة تعبت وشقيت . ألا ترى الانسان كلما نجح في مقاومة الطبيعة ازداد شقاؤه واتسعت دائرة تعاسته ، لأنه يضطر أن يجاهد بكل قوته في مقاومة الطبيعة . وأما أنت وأخواتك من البهائم فلا تعانون كثيراً لانكم تطاوعون سنن الطبيعة . وأنا نفسي مرتاح كل الراحة . بمجاراتي لسنة الطبيعة . أتحدر حيث أجد منحدراً لاني لا أستطيع الارتفاع الا بأن يركب بعضي على بعض . وهذا ما لا أستطيعه الا إذا كان أمامي سد يوقفني . وحيث أجد عقبة ألتوي الى حيث أجد منحدراً فأتحدر فيه . ولذلك أظل أتحدر الى أن أصل الى البحر الذي هو الهي ومنه صدرت واليه معادي حيث أتمتع بالاتحاد به . فلو شئت أن أقاوم ناموس النقل لما استطعت . وهب إني استطعت هذا المستحيل فلا أبلغ الى الهي البحر . وهكذا أنت اذا قمت تخالف سنة الطبيعة تعبت وشقيت ، ولا تتمتع بنعمة الحب الحر التي هي غايتك القصوى . ألا ترى أنك منذ طفقت تخالف هذه السنة قامت العداوة بينك وبين أخيك الأبلق . واذا جرت الأبقار

على خطة الحب الإنساني أفت بعضها بعضاً اقتتالاً . فحاذر أن تتشبه بالإنسان . واعدل عن هذا الجنون الذي لا أدري من رماك به . تالله قل لي من لقنك هذا الدرس الخبيث ؟

— آه تبًّا للريح . فهي التي خدعتني بما لقنتني . إن عظتك يا عزيزي الأخدود لهي الحكمة الطبيعية .

— الريح سخرت منك لأنك جعلت تنطحها . فاسمع انها تقهقه هزءاً بك الآن .

وكانت الريح قد خفت ثورتها وتحوّل سخطها الى ثرثرة فقالت : هكذا تنتقم الريح من الثور الذي ينطحها . افهم عظة الأخدود جيداً فهي حكمة بالغة .

فعاد الأشهب الى الحظيرة نادماً عمّا فعل ، وتبعه الأبلق مسامحاً ، كأن لم يحدث بينهما شجار

* * *

هذه حكاية الثورين الأشهب والأبلق يا عزيزي . وقد تعلمنا منها فلسفتين قديمتين الأولى ان الحب غريزة طبيعية لا قبل للانسان ولا لغير الانسان على مقاومتها . فهو حرٌّ في سنة الطبيعة . والثانية ان الحب نظام اجتماعي مقيد بشريعة الزواج .

قلت : هنا نظامان متناقضان : نظام طبيعي — غريزة — ونظام اجتماعي — زواج . فأي النظامين يجب أن يقوم ، وأيهما يجب أن يسقط ؟

قال : بحسب شريعة الحرية التي نحن بصددها يجب أن يقوم الحب الغريزي لأنه لا يناقض النظام الاجتماعي ما دام خاصًّا بالفرد وحده ، وفي كل حال يقوم أقوى النظامين .

— أيهما الأقوى .

— قال البلبل حكاية الحب الأقوى .